رقصة أخيرة

يُنادي عليهـا بصوته الأجش المتحشرج. تدخـل إليه مسرعة متوقعة ما سـتراه، وما يريده. ممددٌ على الفـراش المبعثر محاولًا إنزال سرواله بيده اليسرى شـبه السليمة. يده اليمنى تتدلى جانبه مُلقاة فوق الغطاء كأنَّما لا تخصُّه. يميل بجسده ناحية اليسار محاولًا رفع رأسه لأعلى بصعوبة. شعره الأبيض مبعثر، وذقنه النامية تأكل ما تبقى من ملامحه. ينهج واللعاب يسيل على شفتيه وهو ينادي عليها من جديد.

كانـت بالغرفة، لكنَّه لم يرهـا. بصوتها الضعيف: «أنـا هنا». دون أن يتكلم، يواصل بيده اليسرى محاولات إنزال سرواله لأسفل. تقترب منه محاولة تحييد ملامحها أمامه، ترفع جذعه لأعلى وتضع خلفه وسادة متحجرة القطن، يرفع رأسه لينظر إليها بنصف عين. تواصل ما تفعله بآلية، تشدُّ له

سرواله ولباسه الداخلي لأسفل، لترى عضوه متمددًا منتصبًا. كان يلهث والعرق يتكاثف على جبهته ووجهه ورقبته. اللعاب يتجمع على شعر ذقنه أسفل شفتيه. يزوم، فتقترب منه وهي تمسك عضوه بقبضة يدها. تلفُّ أصابعها عليه وتبدأ في تحريكها لأعلى وأسفل. وجهه يحتقن، وأنفاسه تتقطع. يمدُّ يده شبه المتحركة ليلفها بصعوبة على كفِّها الصغير، لتقبض على عضوه بقوَّة أكبر.

تواصل تحريك يدها بتسارع وقوَّة. يتشنج جسده، ويرجع رأسه بقوة للوراء وعضوه يقذف على يدها وبطنه وملابسه سائله الأبيض الداكن اللزج. تتركه من يدها ليهوى مائلًا منكمشًا على بيضتيه المحتقنتين. يواصل اللهاث بأنفاس متحشرجة متقطعة. تتناول قطعة قماش من جانبه لتمسح فيها يدها. وتمسك بعلبة سجائره لتخرج له واحدة. تشعلها له بيد مرتعشة، وتضعها في فمه. وجهها محتقن، وأنفاسها متلاحقة. تحاول ابتلاع أي تعبير أو إحساس يتسرب ليرتسم على وجهها.

يسحب نفسًا طويلًا من السيجارة، ليسعل بعدها بشدَّة. يرتجُّ كله وحشرجة صدره تتصاعد وتعلو. تعيد رفعه لأعلى وهي تعدل له ملابسه. تضع وسادة أخرى تحت ذراعه الأيسر ليستطيع إمساك السيجارة بأصابعه المرتعشة. يسقط رماد السيجارة على صدره، فتنظر له دون أن تفعل شيئًا.

تتراجع للخلف نصف خطوة، تحاول أن تخرج من مجال رؤيته، تسمع حشرجته المكتومة وهي تتراجع للوراء، تخرج من الغرفة سيئة التهوية، مقفولة الشباك على الدوام. تقف في الصالة أسفل المصباح الأصفر الكالح،

تنظر طويلًا للغرفة شبه المغلقة وقناع ملامحها الجامدة ينهار؛ لتجهش ببكاء دون صوت.

***

«البروستاتا ملتهبة بشدَّة، محتقنة ومتورمة. هذا عادي بالنسبة لسنه ولحالته الصحية. ولكنَّه يجب أن لا يثار. لا يجب أن يتعرض لأي إثارة حسية من أي ناحية. يجب ألا يحدث انتصاب أو يشعر بشهوة. فهذا سيزيد الحالة سوءًا. لو ازداد الاحتقان سيكون هناك تدخل جراحي، سيضطر لإجراء عملية ربَّما لن يحتملها جسده».

ينظر لها الطبيب من تحت نظارته ليرى مدى استيعابها للأمر. فتهزُّ هي رأسها فهمًا. كانتْ أمامه كومةٌ من التحاليل الطبية والأشعات وروشتات الدواء والتقارير الطبية. يقلب فيها ببطء، وهو يقرأ كل أوراق تاريخه المرضي.

«لن نحتاج لأشعات أو تحاليل جديدة، سأكتب له على أدوية ستساعده. ولكن من المهمِّ جدًّا ألا يشعر بأيِّ إثارة مهما كانتْ لأنها ستزيد من الاحتقان لديه».

يقولها الطبيب، وهو ينظر إليه على كرسيه المتحرك بجانبها. يحاول الرجل أن يعتدل، وهو يشدُّها من كمِّها، يهمهم بكلمات متقطِّعة. تنظر له وهي تحاول أن تداري وجهها من الطبيب.

«أخبريه.. أخبريه». يتنبه الطبيب لما يقول فينظر لها. تواصل هي بعثرة نظراتها في أرضية الحجرة، تسحب شهيقًا طويلًا وتهمس دون أن تنظر

لعينيّ الطبيب: «هو شـهواني جدًّا. يريديني أن أخبرك أنَّه شهواني جدًّا؛ على الرغم من حالته وشلله، إلا أن الشهوة عنده متَّقدة ودائمة. منذ وفاة أمي وهو يعاني من الشهوة الحارقة التي لا يستطيع السيطرة عليها. لا تنفع معه المشروبات الدافئة كالينسون، ولا حتى المهدئات الطبية حتى لا تكتبها له فهي بلا فائدة معه. جرَّبنا الكافور كثيرًا، لكن بلا فائدة أيضًا».

قالـتْ ما قالته في نَفَسٍ واحدٍ ووجهها يحتقن ويتعرَّق بكثافة. ظلَّ هو ناظرًا بعين نصف مغمضة للطبيب، الذي تراجع في كرسـيه وهو يتأملهما معًا. خلع نظارتـه الطبية ووضعها بهدوء على الأوراق أمامه على المكتب الصغير، محاولًا استيعاب ما قالته.

أكملتْ بصوتها المبحوح: «فشـل كثير من الأطباء في تشخيص حالته تلـك. ظلُّوا عاجزين عن فهم كيف يحدث هذا، وقالوا لنا بأنَّ هذا منافٍ للمنطق. اضطررنا للمجيء لك لأن الحالة تزداد وتتوحش».

«حسنًا. في كل الأحوال سأكتب لك مهدِّئًا يحدُّ من شهوتك ويجعلك غير مسـتثار» قاطعه بحـدَّةٍ وهو يزوم. أخذ يتحرك على كرسـيه بعصبية واللعـاب يتناثر من فمه ويتجمع على شـفته السـفلى. يتكلم بما لا يفهمه الطبيـب، ثم أخذ يكرر: «انظر.. انظر» وهـو يحرك يده اليسرى بصعوبة يحاول أن يفكَّ حزام بنطاله.

حاول الطبيب تهدئته، إلا أنه أخذ يتحرك مكانه بجنون وهو يحاول أن ينزل ملابسه لأسفل. حرك قدمه المتحركة ليدفع بها ابنته الجالسة لتساعده. «اهدأ يا أبي. لا يصحُّ هذا». ازدادت عصبيته وصياحه المكتوم المتحشرج،

احتقن وجهه وهو يشدُّ ملابسه بجنون. خافتْ أن يقوم بسبابها أمام الطبيب، فنظرت للأخير بلا حيلة وهي تقوم لتساعده على إنزال ملابسه لأسفل، أدارتْ رأسها للوراء وهي تفعل وتحركت من مكانها سريعًا بعدها واتجهتْ لتقف بالجانب الآخر من المكتب.

كان أبوها يلهث بشدَّة وهو يصرخ في الطبيب بحروف متآكلة: «انظر.. انظر». كان يمسك في يده بعضوه المنتصب الكبير وهو يصرخ بكلمات كثيرة لم يفهم منها الطبيب شيئًا. نظر له الطبيب قليلًا بوجه محتقن، وهو مُحرج، قبل أن يجلس مكانه ثانية. ويشير للابنة أن تعدل له ملابسه.

قالت «هو يريد إخبارك بأن هذه حالته على الدوام. دائمًا ما يشعر بانتصاب وشهوة تزيد من احتقانه».

نظر الطبيب للساعة الموضوعة على طرف المكتب، قبل أن يقول لهما وهو يلمُّ الأوراق الكثيرة من أمامه «سأخبركما بما يجب أن تفعلوه. لا حلَّ لديّ سوى هذا، لا بد من تفريغ».

***

ينادي عليها من جديد، تسمع صوته فتنتفض، تفكر في ألا ترد. لكن آخر مرَّة فعلتْ فيها هذا دوَّى صوته المتقطع عبر أرجاء البيت ليعبر للجيران عبر الشباك المفتوح. ليسمعوه وهو يقول لها «يا شرموطة». دائمًا ما يقول لها هذا حتى قبل أن تفعل ما فعلتْ بتعليمات من الطبيب الأخير، لكنَّه زاد في الحدَّة والقسوة إذا ما تأخرتْ في الدخول إليه يزوم ويصرخ ويسب. يمسك بشعرها بيده السليمة ما أن تدخل. تهتزُّ أصابعه وهو يرجُّ رأسها بعنف،

لا يهدأ حتى تنزل له سرواله ولباسه الداخلي وتمسك بعضوه المنتصب. لم تعد تفعل أيَّ شيء تقريبًا سوى ذلك. خدمته الكاملة، ومتطلبات البيت، وهذا قبل كلِّ شيء.

تسمعه يصرخ عليها من جديد، تدخل للغرفة، تقف أمامه تنظر إليه دون صوت، تراه وهو يحاول إنزال ملابسه. يهتزُّ مكانه بشدَّة، يتحرك بعصبية وجنون، يصرخ واللعاب يسيل على ذقنه وهو يشير إليها أن تقترب.

تظلُّ واقفةً قليلًا مكانها قبل أن تتجه للخارج، للشباك المفتوح بالصالة وتغلقه بعنف. تنزل من على الكنبة المواجهة لغرفته وتتحرك ببطء نحو فراشه من جديد، وتعيد التطلع إليه. تنظر إلى طرف عضوه الذي يجاهد لإخراجه من الملابس. تراه مُنتعظًا مُحتقن الرأس. يواصل الصراخ العصبي غير المفهوم وهو يحاول رفع نفسه لأعلى. جسده كله يرتعش، والعرق يغمره بالكامل. تسمع سبابها، وسباب أمها. شخره المتواصل لها، وإشارته المرتعشة لتقترب.

تتراجع للوراء بخطوات ضيقة. تظلُّ هذه المرة في مجال رؤيته. أمام عينه السليمة شبه المفتوحة. يرغي ويسبُّ ويشخر. تتراجع خطوتين أخريين. تقف أمام باب الحجرة الموارب. كانتْ حركته قد هدأتْ، وإن ظلَّ ينتفض غضبًا مكانه. تنتظر ثوانٍ قليلة أخرى وهي تركز نظرها في عينيه التائهتين. تراه ينظر إليها وقد خفتتْ حركتُه. وجهه محتقن، والعرق يسيل ليبلل ملابسه كلها، والوسادة أسفل منه.

تنظر لرأس عضوه الذي فشل في إخراجه من البنطال. بدأ يزوم من

جديـد وهو يحاول الحركة. تمـدُّ يدها ببطء لتنزل بنطالهـا القطني. تتركه يسـقط أسـفل منها. ينتفض، وتبرق عينه الوحيدة. تتلاحق أنفاسـه غير فاهم لما ستفعله.

تواصل هي، فتخلـع فانلتها العلوية، تخلع ملابس البيت كلها أمامه، تقف أمامه بالكيلوت والحمالة السـوداء العريضة. كان وجهه مُحتقنًا يكاد ينفجر. أنفاسه تتلاحق، واللعاب يسيل كالشلال على ذقنه.

تلفُّ حول نفسـها لفة كاملة وهي تفكُّ شعرها لينسدل على ظهرها. تمدُّ يدها لتفك حمالة صدرها لينطلق ثدياها حُرَّين لأسفل. ترفعهما بكفيها وهي تواصل التحديق في عينيه. كان ينتفض كأنَّه محموم. والحروف تخرج منه متقطعة مليئة باللعاب والسعال المليء بالبلغم. تدور حول نفسها دورة أخيرة وهي تتراجع خطوة أخرى للوراء.

تمد يدها لتنزل كيلوتها وتتركه يسـقط بين قدميها، تظلُّ جامدة مكانها لثوانٍ لتتركه يتأملها قبل أن تدير له ظهرها لتواجهه بمؤخرتها.

تفتح الباب خلفها على مصرعيه، تتمهل في سيرها وهي تذهب للكنبة المواجهة لغرفته بالصالة، تجلس عليها في مجال رؤيته المتقطعة، وترفع قدميها عاليًا أمامه. قبل أن يغوص كفُّها بين فخذيها، وتترك صوتها يتعالى ليصل إليه وهو ينتفض انتفاضات متقطعة.